الله سبحانه وتعالى خالق هذا الكون

هذا الكون الواسع الرحب الذى تعجز الأبصار والبصائر عن الإلمام به وبلوغ مداه والذى يحتوى على سموات وكواكب ونجوم أبرزها الشمس والقمر والأرض تدور فى مداراتها وأفلاكها بدقة وانضباط وانتظام ، فالشمس تجرى لمستقر لها حول نفسها والأرض تدور حول الشمس والقمر يدور حول الأرض والليل والنهار يتعاقبان . والحياة والموت يتسابقان دون انقطاع ولا تراخ فالموت يتعقب الحياة ويحصد ماتزرعه من إنسان وحيوان ونبات . هذا الكون الذى يقوم على هذا النظام المحكم البديع لا يعقل أبداً أن يكون قد وجد من تلقاء نفسه ولا بطريق الصدفة إذ لابد له من خالق وصانع ألا وهو الله سبحانه وتعالى كما يدل على ذلك واقع الحياة ومنطقها . فالواقع يقول لنا إن هذا البناء بناه بناء ولم يقم مصادفة ، وإن هذه السيارة صنعها صانع فى مصنع ما . وإن هذه الدولة أقامها شعبها ، وهلم جرا !

وكذلك هذا الإنسان الذى عمر الأرض وسخر البر والبحر والجو لخدمته وشاد صرح العلم والحضارة وصنع السيارة والطائرة والصاروخ والمذياع والتليفزيون وغير ذلك لابد له من خالق

خلقه لأنه لكل مخلوق خالق ولكل مصنوع صانع ، وهذا الخالق هو الله تبارك وتعالى . فالإنسان صنع القمر الصناعى ومن صنع القمر الطبيعى ؟ والانسان صنع الزهر البلاستيكى ومن خلق الزهر الطبيعى ؟ والإنسان صنع العقل الالكترونى فمن خلق العقل الإنسانى ومن خلق الإنسان نفسه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة تصير جنيناً يخرج بعد بضعة أشهر طفلا رضيعاً إذا ماعمر صار صبيا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا عجوزا كما قال الله تعالى فى سورة غافر : « هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون » .

فهل يعقل أن يمر الإنسان عبر حياته فى هذه المراحل الحياتية المختلفة دون أن تلحظه وتمسه يد خالق عزيز حكيم . وأى عقل يصدق من يزعم بأن الإنسان تطور هكذا تطورا ذاتيا من تلقاء نفسه بلا مشيئة خالق عظيم قادر على كل شىء .

واقع الحياة يقول لنا أنه لم يوجد حتى الآن شىء أو جهاز مصادفة ويتحرك من تلقاء نفسه بقوة ذاتية داخلية فالطائرة التى تطير بلا طيار صنعها الإنسان وتطير بمشيئة صانعها وبتوجيهه وإرشاده، والعقل الالكترونى يعمل بإشراف وتوجيه الإنسان الذى صنعه، والصاروخ ينطلق بإرادة الإنسان الذى صنعه نحو الهدف الذى

يعينه له ، وهكذا لا يتحرك متحرك إلا بمشيئة صانعه ، كذلك الإنسان خلقه الله تعالى من تراب كما يشهد بذلك واقع الحال ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ثم يتطور إلى جنين ثم إلى طفل ثم إلى صبي ثم إلى شاب ثم إلى كهل ثم إلى شيخ عجوز ، ولا يسير ولا يتحرك هذا الإنسان إلا بقوة الروح التى أودعها الله فى جسمه على ضوء عقله وبصيرته . وهو فى هذه الحياة الدنيا معلق بمشيئة الله وبرحمته .

وذلك يدل على أن الأشياء الطبيعية خلقها الله تعالى كما أن الأشياء الصناعية صنعها الإنسان .

وهنا يثور هذا التساؤل إذا كان الله تعالى قد خلق هذا الكون فمن هو الذى خلق الله إذ لا بد من موجد لكل موجود ؟ فيقال إن هذا السؤال يجر إلى سلسلة لا حد لها من الأسئلة دون الوصول إلى نتيجة ، منها : من هو خالق الذى خلق الله سبحانه وتعالى وهلم جرا ! فعقل الإنسان محدود لا يعرف أكثر من أن هذا الكون خلقه الله تعالى ، وإذا تعدى هذا الحد تاه وضل ولا يعرف عن الله تعالى إلا الصفات المعنوية التى ورد ذكرها فى الكتب السماوية من رحمن ورحيم وعزيز وقدير وحكيم وما إلى ذلك .

أما إدراك ذات الله تعالى فمسألة من شأن الله وحده وفوق مستوى العقل البشرى . وفى ذلك قال رسول الله محمد (صلى الله

عليه وسلم) : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذات الله فلن تقدروه حق قدره » .

أما قصة خلق الإنسان وكيف خلق ومم خلق فما ذكره الله تعالى فى كتبه السماوية عن ذلك هو عين الحق والصواب والحقيقة وما عدا ذلك هراء وباطل . فقد خلق الله تعالى الإنسان والنبات والحيوان من التراب كما قال جل شأنه فى سورة الروم : « ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » .

ويدل على ذلك أن كل كائن حى يصير بعد الموت ترابا ولم لا نقول إن كل الذى فوق التراب من التراب وإليه ، ولا غرو فكل شىء يعود إلى أصله .

وهكذا خلق الله الإنسان من صلصال ثم نفخ فيه من روحه فصار بشراً سوياً يسمع ويرى ويحس ويعقل ويدرك ويتحرك كما قال تبارك وتعالى : « وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين » .

وخلق أولا أبانا آدم ثم خلق من نفس آدم أمنا حواء . قال تعالى : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا

إليها وجعل بينكم مودة ورحمـــة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهكذا كان بدء خلق الجنس البشرى . وهكذا بدأت الحياة الإنسانية بوالدين بالغين هما آدم وحواء ولم تبدأ بالتلاحم والتزاوج بين حيوان منوى من ذكر وبويضة لدى أنثى . ولو فرضنا جدلا أن الحياة البشرية بدأت بتلك الطريقة أو بطفلين رضيعين فمن أين جاء الحيوان المنوى والبويضة ومن أنجب الطفلين قبل آدم وحواء ومم خلقا ؟ واقع الحياة يقول لنا إن الحيوان المنوى نزل من صلب رجل وإن البويضة من أنثى . وهذا الرجل هو أبونا آدم والأنثى أمنا حواء ، والعقل يقول لنا إن الحياة البشرية لا يمكن أن تكون قد بدأت بطفلين بلا أبوين لأن الطفلين يستحيل أن يكبرا ويعيشا بلا حضانة ورعاية ، ويستحيل أن يتناكحا ويتناسلا .

وهكذا نرى آية الله الكبرى ومعجزته العظمى الخالدة فى بداية خلق الإنسان وهى تختلف عن باقى وجود الإنسان الذى نراه بعيوننا ونلمسه بأيدينا كل يوم . وهذا لا يكون إلا بمشيئة الله وأمره وقدرته إنه على كل شىء قدير وعزيز حكيم .

ويستحيل كذلك أن يكون الانسان قد تطور عن قرد ولا أن يكون

الإنسان والقرد من فصيلة واحدة فالقرد حيوان أعجم أبكم والإنسان حيوان ناطق عاقل مفكر وإذا صح أن الإنسان أصله قرد متطور ، فلماذا لم تتطور القرود الأخرى إلى أناس يا ترى ، وإذا كان هناك من شبه جزئى بين الإنسان والقرد الشمبانزى فى عمومية الشكل والصورة فهناك شبه آخر بين الجهاز الهضمى للإنسان والجهاز الهضمى للأرنب فهل يمكن أن يقال إن الإنسان أصله أرنب متطور ؟ وهذا ما لا يعقله عقل سليم ولا منطق سوى ، ولكن ما يعقله العقل هو أن الإنسان والقرد وسائر أنواع الحيوان من أصل واحد هو التراب والطين ويدل على ذلك تحول الإنسان والحيوان بعد الموت إلى تراب .

وهذا التنوع والاختلاف فى أشكال الناس وألوانهم وألسنتهم وفى أصناف وألوان النبات والحيوان هل يعقل أن يكون قد وجد وظهر اعتباطاً أو صدفة . فالعقل السليم يقول لنا إن وراءه خالقا عظيما قديرا حكيما ألا وهو الله سبحانه وتعالى . وتلك آية من آياته الرائعة المعجزة كما قال جل شأنه : « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين » وقال عز وجل : « صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ونحن له عابدون » .

ولقد ضل طريق الحق والصواب الحقيقة الذين يقولون بأن الإنسان بدأت حياته على ظهر الأرض بجرثومة صغيرة تحولت إلى حيوان صغير ثم تدرج هذا الحيوان وارتقى إلى حياة حيوانية بدائية فإلى حيوانات أكبر فأكبر ريشية ومجنحة ثم تحولت إلى ذوات فقرات ثم ارتقت إلى حيوان أشبه بالإنسان ثم كانت نهاية هذا التطور إنساناً أول لا يعقل ولا يدرك ولا يتكلم ثم إنساناً كاملا وهو المشهود اليوم بعقله وتفكيره وإدراكه .

وهذا فى رأيى كلام لا يقبله عقل سليم ولا منطق قويم إذ كيف تطورت هذه الجرثومة إلى حيوان صغير . وكيف تطور هذا الحيوان الصغير إلى حيوان أكبر ريشى ومجنح ثم إلى حيوان أشبه بالإنسان ؟ وعلى يد من تطور وارتقى حتى صار إنساناً ناطقاً عاقلا ؟

وينقض هذه النظرية أن واقع الحياة لم يشهد حتى الآن عملية من هذا النوع . فالقرد مثلا ولد من قردين ذكر وأنثى . والأرنب أرنب منذ وجد. وهكذا جميع الحيوانات منذ ظهرت على ظهر الأرض والحيوان خلق أبكم أعجم لا ينطق ولا يعقل منذ عرفه الإنسان .

وتلك الجرثومة التى تطورت إلى حيوان ثم إلى إنسان من خلقها ؟ هل خلقت نفسها بنفسها ؟ أو وجدت بطريق الصدفة ؟ وذلك مستحيل لأنه مخالف للحقيقة والواقع إذ لابد للكائن الحى من خالق حى قيوم ولم يوجد شىء حتى الآن من تلقـــاء نفسه

ولا مصادفة . وهذا الكون الرائع العجيب الذى تسيره وتحكمه قوانين ونواميس لا مثيل لها فى الدقة والإحكام. هل وجد بطريق الصدفة أم أن الطبيعة أوجدته ؟ من الواضح أن الصدفة لا تصنع شيئاً كما يدل على ذلك واقع الحياة وأن الطبيعة لا تعمل شيئاً إذا كانت جماداً ، فالجماد يصنع ولا يصنع فهو لا يحس ولا يدرك ولا يعقل ولا يتحرك ، والصنع والخلق من شأن الكائن الحى العاقل ، أما إذا كانت الطبيعة كائنا حيا يعقل ويصنع ويخلق فهى الله سبحانه وتعالى لأن الإنشاء والخلق من شأن الله تعالى والعبرة فى المسمى والمعنى لا فى الاسم واللفظ .

* * *

وقد خلق الله آدم أبا البشر ووضعه فى الجنة ، ولما أغواه الشيطان وعصى أمر ربه بأن أكل وزوجه حواء من الشجرة التى نهاهما الله عنها أخرجهما الله من الجنة إلى الأرض . قال تعالى : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم . قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم

منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون» . سورة البقرة آية ٣٥ - ٣٨ .

ومع ذلك لم يدع الله تعالى عبده آدم وشأنه ولم يتخل عنه خشية أن يتوه ويضل وإنما حمله شعلة النبوة ورسالة العلم والإيمان والنور لتهديه ونسله إلى الصراط المستقيم طريق الله الذى يعود به إلى الجنة التى أخرج منها . وبذلك يكون الدين قد صاحب الإنسان منذ آدم وفطرة فطر عليها منذ بدء الخليقة والوجود . ولكن هذه الفطرة الطيبة الخيرة كثيراً ماتغرق وينطفىء نورها فى عواصف الغرائز الحيوانية وأمواج الشهوات البهيمية الجامحة التى تجيش وتثور فى نفسه فى جو الإهمال والنسيان والجهل . ولكن لا شىء يجعل الإنسان يعود إلى رشده وعقله كالخوف ، ولا شىء يملأ قلب الإنسان بالرعب والرهبة كالموت وقوى الطبيعة التى لا تقهر . فالخوف من الموت وقوى الطبيعة المرعبة جعل الإنسان يفكر فى وجود صانع الموت وقوى الطبيعة ووجود حياة أخرى بعد الموت . وذلك يبعث فطرة التدين من رقادها فى نفس الإنسان ويجعلها دائماً حية نامية . وإذا ماتعرضت لحملات إطفاء وإخماد صارت ناراً تحت رماد لا تلبث أن تعود إلى الاشتعال وشمساً خلف سحاب وضباب لا تلبث أن تعود إلى السطوع والإشراق .